**النــــــثر الجزائري**

**المســـــرح أنموذجا**

1. **الجذور التاريخية للمسرح الجزائري :**

على غرار باقي البلدان العربية، لم تعرف الجزائر المسرح بالمفهوم الحديث، أي باعتباره نوعا أدبيا وفنا له أصوله وقواعده المتعارف عليها حديثا، إلا في مطلع القرن العشرين ، وقد أشار إلى ذلك أحمد توفيق المدني في قوله «لعل قطر الجزائر – بعد جزيرة العرب - هو القطر الإسلامي الوحيد الذي لم يدرك بعد أهمية التمثيل وينشأ به المسرح العربي، ولم يشعر شعبه حتى بوجود ذلك النقص العظيم فيه“. الساعة لكن إذا كان هذا التأخر في ظهور المسرح يشمل كافة البلدان العربية، باعتبار أن الطقوس الاجتماعية والدينية التي عرفها العرب في شبه الجزيرة العربية، قبل الإسلام، لم تتطور إلى فن مسرحي، كما حدث في أجزاء أخرى من الأرض ، فإن هذا لا ينفي وجود أشكال مسرحية بدائية إضافة إلى محاولة جادة في الجزائر، خلال القرن التاسع عشر، متمثلة في مسرحية» نزهة المشتاق وغصة العشاق في مدينة ترياق بالعراق « لصاحبها إبراهيم دانينوس» وذلك سنة 1835.

لقد تم اكتشاف مخطوط المسرحية من قبل الباحث الانجليزي فيليب ساد جروف ، بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وتم طبعه ضمن كتاب عنوانه : » الحركة المسرحية عند يهود البلاد العربية في القرن التاسع عشر» "، ألفه بالتعاون مع الأستاذ ش.موييه ويعتقد ساد جروف أن هذه المسرحية تحمل نفس الأهمية من حيث الريادة، إن لم تكن الأولى في العالم العربي، إلى جانب مسرحية «البخيل» التي اقتبسها مارون النقاش عن موليير وعرضها ببيروت سنة 1848. إن العثور على هذه المسرحية، حسب كمال بن ديمراد، ليدعو إلى إعادة النظر حول الخطوات الأولى للمسرح في الوطن العربي" ، لكن نقص المعلومات والدراسات الكافية حولها، تجعل الباحث يحجم عن إصدار أي حكم حول من كانت الريادة في الوطن العربي في مجال الإبداع المسرحي، فحتى سعد الله يكتفي بالقول، أثناء حديثه عن هذه المسرحية : «لا ندري إن كانت مثلث أو لا، وفيه أدوار نسوية أيضا، وتدور أحداثها في العراق وتمثل قصة حب خيالية يبدو أنها مستوحاة من ألف ليلة وليلة»، أمّا بالنسبة للأشكال المسرحية البدائية أو العفوية، كما تسميها بافيه، والتي تشكل الأرضية التي سيقوم عليها المسرح الجزائري فهي متعددة ومتنوعة، لأن المسرح في أي بلد من البلدان لم يولد مباشرة في بناء جاهز يضم فرقة من الممثلين لها برنامج وعروض مسرحية "، بل بدأ بأشكال مسرحية بدائية "، من أهمها نذكر :

**- مسرح الكراكوز وخيال الظل**:

ويعرف كذلك بالمسرح الصيني، وقد أطلق عليه سعد الله المسرح التقليدي" ، عرفته الجزائر قبل دخول العثمانيين وتطور إبان حكمهم لها ،خاصة وأنهم حملوا معهم، بعد استقرارهم بهاعاداتهم وآدابهم وفنونهم بما في ذلك : مسرح الكراكوز وخيال الظل، الذي كانت عروضه تقدم خاصة خلال شهر رمضان «حيث تمتد السهرات وتسمح القواعد الاجتماعية بطول المكوث خارج البيوت» " وقد استمرت هذه العروض تقدم حتى القرن 19 حيث أشار العديد من الرحالة إلى وجودها مثل بوكلر ميسكان (-PUKLER MUS KAN) الذي، حسب أرليت، شاهد عروض الكراكوز بالجزائر العاصمة سنة 1835 \* والتي استمرت إلى غاية منعها من قبل الإدارة الاستعمارية التي اعتبرتها عاملا محرضا على الثورة.

**- الأشكال التمثيلية الشعبية**: التي يزخر بها التراث الجزائري والتي مهدت «لظهور الممثل وولادة المسرح الحقيقي»، والمتمثلة في الاحتفالات الدينية والاجتماعية، والحركات الخارقة لعيساوة، والطواف والوقوف عند مقابر الأولياء، والاحتفالات المرتبطة بيوم عاشوراء التي كانت تصاحب بعرض تمثيلية". إضافة إلى ذلك نجد المداح الذي كان يجوب الأسواق، والراوية والحلقة، ثم الاحتفالات المرتبطة بالمناسبات الفصلية الفلاحية التي كانت تقام على طول شهور السنة 2 كالتويزة والأم تانونجا . تمثل هذه الأشكال «بوادر مسرحية قديمة وأصيلة ومؤسسة على مهارة عربية محلية لكن لم تتطور وتكتمل ضمن إطار أدبي درامي، وذلك لعدة أسباب واعتبارات.

-**2 العوامل المساعدة على ظهور المسرح الجزائري** :

لقد تأثر **المسرح الجزائري**، في مسار تطوره، بعدة عوامل، واستفاد من تجارب الأمم الأخرى من أجل شق طريقه، ليصبح ظاهرة اجتماعية وثقافية في منتصف العشرينات من القرن الماضي، بإنتاج درامي دائم ومستمر، وهذه العوامل يمكن ترتيبها حسب أهميتها كما يلي :

1. **زيارة الفرق المسرحية العربية**: عرفت الجزائر انطلاقا من مطلع القرن العشرين توافد وزيادة مجموعة من الفرق المسرحية العربية من أكثرها تأثيرا على مسار تطور المسرح الجزائري نذكر :

**- فرقة القرداحي**: التي زارت كلا من تونس والجزائر سنة 1908 وحققت زيارته، حسب تمارا نجاحا باهرا.

**- فرقة التمثيل المصري لجورج أبيض**: قام الفنان اللبناني جورج أبيض بجولة عبر البلاد العربية مع فرقته، فزار ليبيا وتونس ثم الجزائر سنة 1921، وقدم عدة عروض مسرحية بقاعة المسرح الجديد بالجزائر العاصمة هي : «ثارات العرب»، «صلاح الدين الأيوبي» "، لنجيب حداد، و»مجنون ليلى»، وقد امتد نشاط الفرقة ليشمل تلمسان و قسنطينة، حيث قدم فيها عروضا مماثلة\* ، لقد حضت هذه الزيارة باهتمام كبير من قبل الدارسين للشأن المسرحي، نظرا للتأثير الذي كان لها على المسرح الجزائري، وذلك رغم اختلافهم في تحديد هذا التأثير و مدى نجاح هذه الزيارة، فمرتاض يقول في هذا الصدد : «كانت بمثابة هزة كبيرة للمثقفين من الشباب الجزائري يومئذ مما أفضي بعد ذلك إلى قيام فرقة التمثيل العربي بالجزائر....\*2، أما محمد الطاهر فضلاء فيعلق على الزيارة بما يلي : «العامل الحقيقي في بدء النهضة المسرحية في الجزائر “.

لكن رغم ذلك، فإن بعض الباحثين يعتبرون بأن الزيارة كانت ذات تأثير محدود، ولم تحقق أهدافها، بل وفشلت، حيث لم تستطع العروض المقدمة استقطاب سوی جمهورا قليلا من المتفرجين، وهذا الفشل يفسره هؤلاء بالعوامل الآتية :

- ضعف مستوى اللغة العربية لدى الجزائريين، وصعوبة فهمها وانتشار الأمية بين صفوفهم.

- عزوف النخبة المثقفة بالفرنسية عن متابعة عروض جورج أبيض، وتفصيل العروض المسرحية الفرنسية عليها.

- عدم تعود المجتمع الجزائري على ارتياد دور المسرح ومشاهدة المسرحيات وانشغاله بهمومه ومشاكله المحتلفة.

- بعد قاعة العروض المسرحية عن مركز المدينة الأوروبية، وكذلك عن أحياء سكن الجزائريين.

- ضعف الدعاية وتقصير متعهد العروض المسرحية في الترويج لها.\* رغم أن عروض جورج أبيض لم تستطع استقطاب جمهور كبير، لكن كان لها تأثير مباشر على تطور المسرح الجزائري، حيث أنه في نفس السنة سيبادر مجموعة من المثقفين والطلبة الجزائريين بتأسيس «جمعية الآداب والتمثيل العربية المعروفة بالمهذبة، في 1921/04/05 والتي ستقدم، برآسة الطاهر علي الشريف، عدة مسرحيات، «الشفاء بعد العناء» سنة 1921 وخديعة الغرام» سنة 1923 بقاعة الأوبرا بالجزائر العاصمة، ثم مسرحية «بديع» سنة 1924 .

**\* فرقة عز الدين المصرية**: زارت هذه الفرقة مدينة الجزائر سنة 1922، وقدمت بعض العروض المسرحية مصحوبة بمجموعة من الأغاني والمواويل الشرقية التي كان يؤديها سلامة حجازي \*، وقد لاقت هذه الزيارة نجاحا كبيرا، وأقبل الجزائريون على متابعة عروضها لإعجابهم بأغاني سلامة حجازي التي كانوا يعرفونها جيدا عن طريق الأسطوانات، التي كانت متداولة آنذاك" .

**\* فرقة فاطمة رشدي**: زارت هذه الفرقة الجزائر سنة 1932 ، وقدمت ثلاث مسرحيات، اثنتان لأحمد شوقي وهما : «مصرع كليوباترة» و «مجنون لیلی» ثم مسرحية «العباسة أخت رشيد»، ورغم أن هذه الزيارة جاءت بعد تأسيس المسرح الجزائري وانطلاق مسيرته، لكن كان لها تأثير كبير على مسار تطوره، حيث استفاد الفنانون الجزائريون من تجربة فاطمة رشدي التي لاقت فرقتها ترحابا واحتفاء كبيرا من قبل الجمهور الجزائري، وتم تكريمها في نادي الترقي بالجزائر العاصمة .

**\* الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى**: برآسة يوسف وهبي تمت هذه الزيارة سنة 1949 " وتكررت في العام الموالي، وكان يرافق وهبي فيها المفكر زكي طليمات ومجموعة من الفنانين الكبار أمثال أمينة رزق وحسن رياض وغيرهم... وقدمت عدة عروض مسرحية في الجزائر العاصمة، وسيدي بلعباس، وتلمسان تمثلت في «الاعتراف»، «بنات الريف» و«أولاد الفقراء».. كان لهذه الزيارة تأثير هام على المسرح الجزائري، رغم أنها جاءت في مرحلة أصبح فيها المسرح مؤسسة قائمة بذاتها، ولها موسم مسرحي رسمي، وقد أوضح ذلك مرتاض في قوله «كان لهذه الزيارة أثر عظيم جدا في الأوساط الأدبية والثقافية» ، لهذا حضت بترحاب وإقبال الجمهور الجزائري على متابعة عروضهاكما أنها كرمت عدة مرات من قبل بلدية سيدي بلعباس ومن قبل جمعية العلماء المسلمين وكذلك من طرف فرقة «هواة المسرح العربي» برآسة محمد الطاهر فضلاء.“

**ب- تأثير المسرح الفرنسي** :

لقد تأثر الجزائريون بالمسرح الفرنسي، واستلهموا من روائعه العديد من المسرحيات الكوميدية ذلك أن الإدارة الاستعمارية اهتمت بالمسرح لرغبتها في الترفيه عن عساكرها المتذمرين من المقاومات الشديدة، التي واجههم بها الشعب الجزائري، لهذا قامت بخلق فرق مسرحية للجيش الفرنسي داخل الثكنات، وفي أماكن تواجد المعمرين الأوروبيين، وذلك مراعاة لطريقة نابليون في هذا المجال “، حيث قامت بإنشاء مسرح بلدي في كل مدينة تقريبا، فكان للعاصمة مسرحها ، إذ أصدر لويس نابليون مرسوما، سيشيد بمقتضاه بناء مسرحيا رائعا خلال أعوام (1853-1850) \*، وكان أول عرض مسرحي يقدم فيه دراما عنوانها «الجزائر ما بين 1830 1853» "، وكذلك الشأن بالنسبة لمدينة وهران، حيث سيتسلم مجلسها البلدي مسرح المدينة سنة 1907.

**جـ- ظهور مجموعة من الجمعيات والنوادي**:

لعبت الجمعيات و النوادي دورا هاما في ظهور النشاط المسرحي بالجزائر و من بينها نذكر :

**- جمعية المطربية للموسيقى**: تأسست سنة 1911 برآسة إدموند يافيل و كانت خلال سهراتها الفنية تدرج تمثيليات قصيرة، أو اسكتشات كوصلات، وخاصة في شهر رمضان “، و سلالي علي قدم اسكتشاته الأولى في هذا الإطار.

**- الجمعية الودادية للتلاميذ المسلمين في إفريقيا الشمالية**: جعلت، منذ تأسيسها سنة 1918، من المسرح وسيلة للترفيه عن الطلبة من جهة، وطرح القضايا ذات البعد الوطني من جهة ثانية. " - جمعية الآداب والتمثيل العربي 57 كانت تعرف بالمهذبة، تأسست على يد الطاهر علي الشريف في 1921/04/05، وقدمت ثلاث مسرحيات : «الشفاء بعد العناء»سنة 1921، «خديعة الغرام» سنة 1923، وذلك بالجزائر العاصمة، ثم مسرحية «بديع» في سنة 1924 .

**- جمعية العلماء المسلمين**: اهتمت هذه الجمعية بالمسرح منذ تأسيسها في ماي 1931، وجعلت منه وسيلة لتمرير رسالتها ونشر تعاليمها، لهذا عملت على تحفيز الكتاب، الأعضاء في الجمعية، على الاهتمام بالكتابة المسرحية، أمثال أحمد توفيق المدني ومحمد العيد آل خليفة واحمد رضا حوحو ، كما أن مدراء ومعلمي المدارس الحرة التابعة لها، كانوا يثابرون في كتابة المسرحيات وتمثيلها وذلك بمناسبة الح ات التي كانت تنظم عند انتهاء السنة الدراسية، أو بمناسبة المولد النبوي ومدرسة دار الحديث بتلمسان ومديرها آنذاك محمد الصالح رمضان، نموذج في غزارة الإبداع المسرحي " إضافة إلى ذلك نجد جمعيات ونوادي أخرى عديدة مثل «نادي السعادة» بتلمسان والذي قدم مسرحية «فتح الأندلس» ، وجمعية «إخوان الأدب» في وهران برآسة محمد سعيد الزاهري.. الخ.

**د- ارتباط المسرح بالغناء والموسيقى** حيث أن الخطوات الأولى للمسرح الجزائري كانت في شكل اسكتشات تقدم كوصلات أثناء الحفلات الموسيقية التي كانت تقدمها فرقة المطربية، بحيث أن الجمهور كانت تستهويه الموسيقى والغناء قبل التمثيل، لهذا فحتى بعد نشأة وتأسيس المسرح الجزائري، ظل مرتبطا بالغناء، حيث أن المسرحيات المقدمة كانت تتضمن، الواحدة منها، العديد من الأغاني.

**-3 نشأة و تأسيس المسرح الجزائري**:

**أ- الإرهاصات الأولى للمسرح الجزائري**:

تكاد تجمع أغلبية الدراسات والأبحاث حول المسرح الجزائري، على أن تاريخ نشأته وتأسيسه، هو مرحلة العشرينات من القرن الماضي. لكن الظاهر أن المحاولات الأولى للتمثيل قد تمت قبل ذلك، إنما لم يتم التأريخ لها، وذلك على أساس أن المسرح كان يدخل ضمن أنشطة الجمعيات والنوادي الثقافية التي ظهرت في الجزائر في مطلع القرن العشرين، لأنه حسب سعد الله، إذا لم تقدم لنا هذه الجمعيات بعض المسرحيات فماذا كانت تفعل إذن؟

من المحاولات المسرحية التي سجلها لنا التاريخ في القرن العشرين، تلك المرتبطة بنشاط الأمير خالد “، حيث ستسمح له فرصة حضور حفل تكريم خريجي كونسرفاتوار باريس سنة 1910، من أجل أن يطلب من جورج أبيض \*\* أن يبعث له ببعض المسرحيات باللغة العربية. وفعلا بعد رجوعه إلى مصر، بعث له بمسرحية «ما كبث» لشكسبير \*\* و»المروءة والوفاء» لخليل اليازجي سنة 1876، ثم «شهيد بيروت» لشاعر النيل، حافظ إبراهيم. سلم الأمير خالد المسرحيات إلى ثلاث جمعيات سبق له أن أسسها بكل من الجزائر العاصمة والبليدة والمدية ، توسعت حركة التمثيل المسرحي لتشمل مدينة تلمسان، حيث قدمت «جمعية البركانية» • مسرحية «براد السم» سنة 1913، ثم مدينة المدية التي ستقدم جمعیتها مسرحيتان، «مقتل الحسين» سنة 1913، والتي حضرها الشيخ محمد بن شنب، والمفتي حميد فخار، والأمير خالد، ثم مسرحية «يعقوب اليهودي» سنة 1914، لتمتد بعد ذلك إلى مدن أخرى من الجزائر.

لقد سمحت هذه الظروف للمسرح الجزائري باستئناف نشاطه من جديد على يد الطاهر على الشريف، مؤسس جمعية الآداب والتمثيل العربي، والذي سيقدم ثلاث مسرحيات باللغة العربية " جعلت بوجادي علاوة يعتبره «المؤسس الحقيقي للمسرح كفعل ثقافي وفني منظم» ، ثم محمد رضا منصالي (1889-1943) الذي سيقدم مسرحيتين، الأولى بعنوان «في سبيل الوطن» في 1922/12/22، في قاعة كورسال ، والثانية بعنوان «فتح الأندلس»، اقتبسها من : رواية لجورجي زيدان وقدمها بالبليدة ولعب فيها دور طارق بن زياد، لكن رغم ما يبدو من نضج على هذه التجارب المسرحية، فإنها قد فشلت ولم تتمكن عروضها من استقطاب سوى جمهور قليل، وبذلك سيتوقف مسار الإبداع المسرحي لمدة سنتين كاملتين (1926-1924) وهذا التوقف، والفشل، يمكن تفسيره بمجموعة من العوامل والأسباب من أهمها نذكر :

**- ضعف تكوين الجمهور الجزائري في مجال المسرح، بحيث كان يجد صعوبة في فهم مبادئه وأهدافه". - صعوبة فهم الجمهور للغة العربية باستثناء الفئة المثقفة.**

**- عدم وجود ممثلات يتقن اللغة العربية لأداء الأدوار النسائية، بحيث كانت الفرق المسرحية تلجأ في عروضها إما إلى حذف الأدوار النسائية أو إسنادها إلى رجال.**

**- المشاكل المادية والتقنية التي كانت تعاني منها الفرق المسرحية، كنقص التمويل والافتقار إلى المقرات لأداء التدريبات اللازمة "، إضافة إلى ذلك قلة قاعات العروض المسرحية، حيث أن الفرق الجزائرية، كانت أحيانا تقدم عروضها في قاعات غير لائقة، ولا يمكنها استعمال قاعة الأوبرا مثلا في الجزائر العاصمة إلا عند نهاية موسم المسرح الأوروبي، أو في يوم عطلة"** .

**ب- تأسيس المسرح الجزائري** أعطى الجمود الذي عرفه المسرح الجزائري في الفترة ما بين 1924-1926، الفرصة والوقت الكافيين للمسرحيين الجزائريين، وخاصة سلالي علي المعروف بعلالو، وإبراهيم دحمون، لكي يفكروا مليا في وضع الشأن المسرحي بالجزائر، ثم يعاودوا الاتصال بالجمهور من جديد بتقديم مسرحية «جحا»، وذلك باللغة العامية، في 1926/04/12، فوق ركح المسرح الجديد بالجزائر العاصمة " لقد حققت المسرحية نجاحا كبيراوإقبالا واسعا من قبل الجمهور على مشاهدتها، بحيث استقطبت في عرضها الأول 1200 متفرج." هذا الإقبال على مشاهدتها جعل المنظمين يبرمجون ثلاث عروض جديدة لها خلال شهر ماي من نفس السنة. إن النجاح الذي حققته هذه المسرحية، جعل كثيرا من الباحثين والدارسين للشأن المسرحي في الجزائر، يعتبرونها البداية الحقيقية للمسرح الجزائري، وتقول أرليت بهذا الصدد : «لقد كانت إبداعا اتسم بالتجديد على ثلاث مستويات، و ذلك من حيث النمط ومن حيث المواضيع ثم من حيث اللغة المستعملة، فإذا كانت المسرحيات الأولى باللغة العربية الفصحى قد دافعت عن أطروحات اجتماعية وعالجت مواضيع نبيلة كالوطنية، فإن مسرحية جحا كانت مسرحية مضحكة باللغة العامية" " لقد تضافرت عدة عوامل وأسباب وساهمت في نجاح هذه المسرحية و من أهمها نذكر :

**- تناولها لموضوع ولوحات يعرفها الجمهور الجزائري، وقريبة منه.**

**- الطابع الفكاهي للمسرحية وتكيفها مع عقلية وطبيعية الجزائريين.**

**- استعمال اللغة العامية المفهومة من قبل الجمهور الجزائري.**

**- الأداء الممتاز للممثلين، وتفننهم في تقمص الأدوار المسندة إليهم.**

لقد حرر عرض مسرحية جحا مجال الإبداع المسرحي، الذي أصبح يتسم باستمرارية الإنتاج، حيث سيبدع علالو ثماني مسرحيات نذكر منها «زواج بوعقلين» سنة 1926 والتي سيبتدئ فيها رشيد قسنطيني مشواره الفني ، ثم يؤسس فرقة الزاهية التي سينظم إليها محي الدين بشطارزي، وبذلك يكتمل الفريق المؤسس للمسرح الجزائري، و الذي قال حمومي أحمد بصدده : «علالو وقسنطيني وبشطارزي، الثلاثي الذي وضع قطار المسرح الجزائري على السكة" "

لم يبق **المسرح الجزائري** منحصرا في الجزائر العاصمة بل انتشر في باقي المدن الجزائرية عن طريق الجولات التي كان ينظمها محي الدين بشطارزي عبر مختلف أنحاء التراب الوطني، كما تفاعل مع الحركة الوطنية باعتباره تأسس في مرحلة غليان سياسي واجتماعي، وتبني مطالبها، وانتقد الممارسات الاستعمارية، واستخدم المواضيع التراثية والتاريخية والمقاوماتية بإيحاءات سياسية، بغرض تمرير رسالته النبيلة وعليه يمكننا في نهاية هذه الدراسة، حول نشأة و تأسيس المسرح الجزائري، أن نصل إلى مجموعة من الاستنتاجات هي كالآتي :

* **انه رغم الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى فقد تمكن قلة من الرواد الأوائل ، محي الدين بشطارزي ، سلالي علي ، رشيد قسنطيني ، من أن يؤسسوا المسرح الجزائري بإنتاج درامي دائم و مستمر إلى غاية قيام الثورة التحريرية.**
* **أن المسرح الجزائري في مسار تكوينه مر بعدة مراحل ابتداء بالأشكال المسرحية البدائية إلى غاية ظهوره كمسرح قائم بذاته كنوع أدبي و فني له أصوله و قواعده المتعارف عليها.**
* **أن المسرح الجزائري نشأ في أحضان الحركة الوطنية الجزائرية و تشبع بقيمها و تأثر بها ، اد تم استعماله كوسيلة كفاح و نضال ضد الاستعمار الفرنسي في إطار المقاومة الثقافية ، و جبهة التحرير الوطني كانت لها فرقة مسرحية قدمت عروضا في مختلف الدول و ذلك للتعريف بالقضية الجزائرية و حشد الدعم لها .**